محمد بن القاسم

أعـــلام القـــادة

obeikandl.com

obeikandl.com

القائد محمد بن القاسم

محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم ابن أبي عقيل الثقفي: فاتح السند، ووالیها. من كبار القادة، ومن رجال الدهر في الدولة الأموية، قاد الجيوش لسبع عشرة سنة، كان أبوه والي البصرة للحجاج.

افتتح عددا من البلاد وانساح فيها فتحا وتنظيما، إلى أن جاءته الأنباء بوفاة الحجاج ثم الوليد ابن عبد الملك. وولاية سليمان بن عبد الملك. وكان سليمان شديد النقمة على الحجاج وعماله، فلما ولي، بعد موت الحجاج عمد إلى أقربائه وكتابه وعماله فنكبهم، وعزل محمد ابن القاسم وأمر بحمله من السند مقيدا، فحمل إلى واسط، وعذب بها، فقال شعرا يعاتب به بني مروان، فأمر سليمان بإطلاقه فأطلق، ثم قتله معاوية ابن يزيد بن المهلب. وقيل: مات في العذاب. وقال ابن حزم: قتل نفسه في عذاب يزيد بن المهلب [1].

محمد بن القاسم الثقفي وفتح السند: ٨٩ - ٩٦هـ:

كان انتصار المسلمين في معركة القادسية في عهد عمر بن الخطاب إيذاناً لهم بفتح السند، فقد استنجد كسرى الفرس ببعض ملوك البلاد المجاورة ومنها مملكة السند حيث أمده ملك السند بالمال والرجال الأمر الذي اضطر المسلمين بمهاجمة السند رداً على تدخلهم ضدهم في معركة القادسية ولذلك فإن البلاذري يحدثنا عن حملات إسلامية مبكرة على السند كان أولها في عهد عمر بن الخطاب، وكان ثانيها في عهد علي بن أبي طالب، كما نفهم من

(١) خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفى: ١٣٩٦هـ)، الأعلام، دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر - أيار / مايو ٢٠٠٢ م، ٦ / ٣٣٣.

رواية البلاذري أن عثمان بن عفان كان أيضا مهتما بتقصي تحركات السند، كما أن البلاذري يوضح الأسباب التي حولت هذه الحملات إلى فتح منظم للسند في الأسباب الآتية

- اكتشاف تحالف آخر بين السند والترك حيث لقي المهلب في عهد معاوية بن أبي سفيان ثمانية عشر فارساً من الترك ببلاد القيقان بالهند، لذلك تلاحقت حملات معاوية فأغار عبد الله بن سوار وسنان بن سلمة ابن المحبق الهذلي فأنى الثغر ففتح مكران عنوة ومصرها وأقام بها.

- أعمال القرصنة البحرية التي كان يقوم بها الهنود حيث يذكر البلاذري أن البوارج الهندية قد استولت على سفينة كانت تحمل نساء مسلمات أرسلهن ملك جزيرة الياقوت هدية إلى الحجاج بن يوسف فنادت امرأة من تلك النسوة وكانت من يربوع: يا حجاج وبلغ الحجاج ذلك فقال: يا لبيك فأرسل إلى داهر يسأله تخلية النسوة. فقال أخذهن لصوص لا أقدر عليهم، لذلك أرسل الحجاج بن يوسف عبيد الله بن نبهان إلى الديبل " كراتشي اليوم " فقتل، فكتب إلى بديل بن طهفة البجلي وهو بعمان يأمره أن يسير إلى الديبل، لكن الهنود استطاعوا محاصرته وقتله أيضا(١).

وتبدّى للحجاج مدى الإهانة التي تلحق بهيبة المسلمين وخطورتها إن هو سكت على هذا الأمر، فاختار محمد بن القاسم وكان بفارس، وكان قد أمره أن يسير إلى (الريّ)، فردّه إليه، وعقد له على ثغر (السند)، وضمّ إليه ستة الآف من جند أهل الشام، وجهّزه بكلّ ما احتاج اليه - حتى الخيوط والإبر والمال - وأمره أن

(١) محمد النجرامي، العلاقات السياسية بين الهند والخلافة العباسية، ص٣٠،الصلابي، الدولة الأموية عوامل الإزدهار وتداعيات الإنهيار، ٣ /١٨٩.

يقيم بشيراز حتى يكمل حشد رجاله ويوافيه ما أعدّ له، واهتمّ الحجاج اهتماما بالغاً في إنجاز إستحضارات جيش محمد بن القاسم حتى بلغ بذلك حدّ الروعة حقاً فلم ينس أصغر التفاصيل الإدارية لإكمال الستحضارات هذا الجيش، حتى إنه عمد إلى القطن المحلوج فنُقع في الخل الأحمر الحاذق، ثم جُفِّف في الظل وقال لهم: إذا صرتم إلى (السِّند) فإن الخل بها ضيِّق، فانقعوا هذا القطن في الماء، ثم اطبخوا به واصطبغوا. ويقال: إن محمداً لما صار إلى ثغر السِّند، كتب يشكو ضيق الخلِّ عليهم، فبعث الحجاج إليه بالقطن المنقوع في الخل.

مضى محمد إلى إقليم السند ففتحها، واستولى علي عاصمة الإقليم مدينة الديبل وأنزل فيها محمد بن القاسم أربعة الآف من المسلمين وبنى عليها جامعها، فكان أول جامع بني في هذه المنطقة، وبعد ذلك تمكن من قتل داهر ملك الهند، ولما قتل (داهر) غلب محمد على بلاد السند فتح.

وعظمت فتوح محمد، فراجع الحجّاج حساب نفقاته على هذه الحملة، فكانت ستين ألف ألف درهم فقال: شفينا غيضنا، وأدركنا ثأرنا، وازددنا ستين ألف ألف درهم ورأس داهر.

لقد أنجز محمد هذا الفتح كله في المدة بين سنة تسع وثمانين الهجرية وأربع وتسعين الهجرية[1].

و بينما محمد بن القاسم يدبر أمر السند وينظم أحواله بعد الفتح ويستعد لفتح إمارة قنوج وهي أعظم الإمارات في شمال الهند توفي الخليفة الوليد بن عبد الملك سنة ٩٦هـ وتولى أخوه سليمان ٩٦ـ ٩٩ هـ الذي بدأ يغير ولاة الحجّاج، فعين على العراق رجلاً من ألد أعداء

(١) الدولة الأموية عوامل الإزدهار وتداعيات الإنهيار، ٣ /١٩٤.

الحجّاج، وهو صالح بن عبد الرحمن، الذي كان الحجّاج قد قتل أخاً له اسمه آدم بن عبد الرحمن كان يرى رأي الخوارج، فقرر صالح بن عبد الرحمن أن ينتقم من أقرب الناس إلى الحجّاج، وهو محمد بن القاسم فعزله عن السند وولى رجلاً من صناعه وهو يزيد بن أبي كبشة، وأمره بالقبض على محمد، فقبض عليه وأرسله إليه، فحبسه في واسط في رجال من آل أبي عقيل، وقد ادعت ابنة ملك السند الذي قتله ابن القاسم أنه راودها عن نفسها أو نالها قسراً، ولذا فقد سجن في واسط وعذب، ثم تضاربت الروايات بشأنه فقيل إنه مات تحت العذاب، وقيل: إنه أطلق سراحه ثم قتل، وقيل بل قتل بدسائس من أتباع داهر فأتهم به الخليفة، ثم اعترفت ابنة داهر فيما بعد بأنها كانت كاذبة في إدعائها، وهكذا انتهت حياة هذا البطل وهذا الفاتح الكبير هذه النهاية الأليمة، وحرمت الأمة الإسلامية من هذه العبقرية الشابة، فإن محمداً حقق هذه الأمجاد وهو في مقتبل العمر حتى قال فيه الشاعر:

إن الشجاعة والسماحة والندى ::: لمحمد بن القاسم بن محمد
قاد الجيوش لسبع عشرة حجة ::: يا قرب ذلك سؤدداً من مولد

وقد ساس الجيوش وقادها وعمره سبع عشرة سنة قال فيه الشاعر يزيد بن الأعجم:

ساس الجيوش لسبع عشرة حجة ::: ولداته عن ذاك في أشغال فغدت
بهم أهواؤهم وسمت به :: همم الملوك وسورة الأبطال

وكان محمد بن القاسم يهتف في أعماق سجنه وفي ظلماته:

أتنسى بنو مروان سمعي وطاعتي ::: وإني على ما فاتني لصبور
فتحت لهم ما بين (سابور) بالقنا ::: إلى الهند منهم زاحف ومغير
فتحت لهم ما بين جُرجان بالقنا ::: إلى الصين ألقى مرة وأغير

وما وطئت خيل السكاسك عسكري ::: ولا كان من (عك) علـيّ أمـير

مات محمد بن القاسم بالتعذيب، أو قتل بعد تعذيبه، دون أن يشفع لهذا القائد الشاب، بلاؤه الرائع في توسيع رقعة الدولة الإسلامية، ولا مهارته الفذة في القيادة والإدارة ولا انتصاراته الباهرة في السند، ولكنَّ آثاره الخالدة وأعماله المجيدة باقية بقاء الدهر، ولم يختره الله إلى جواره إلا بعد أن أبقى اسمه على كلِّ لسان وفي كل قلب، رمزاً للجهاد الصادق والتضحية الفذّة والصبر الجميل. أما الذين عذبوه فقد ماتوا وهم أحياء ولانزال حتى اليوم نذكر محمد بن القاسم بالفخر والاعتزاز، ونذكر الذين عذّبوه بالخزي والاشمئزاز.

رحم الله محمد بن القاسم الشاب المظلوم، الأمير العادل الإداري الحازم، لقد بكاه أهل السند من المسلمين، لأنه كان يساويهم بنفسه ولا يتميز عليهم بشيء، ويعدل بالرعية ولأنه نشر الإسلام في ربوعهم فأرسل دعاته شرقاً وغرباً يجوبون البلاد التي فتحها وكان أكثر من هداهم الله إلى الإسلام من أهل السند على يديه، فمنذ الخطوات الأولى للفتح بدأت شخصيات كبيرة تعتنق الإسلام فعندما فتح محمد بن القاسم مدينة الديبل واستولى على قلعتها التي كان بها الأسرى من الجنود والتجار المسلمين والنساء المسلمات وقتل حرّاس القلعة بناء على أوامر الحجّاج انتقاماً لشهداء المسلمين، عندئذ جاء مدير السجن الذي كان به المسلمون طالباً العفو عنه لأنه كان محسناً للأسرى المسلمين ويعاملهم معاملة كريمة، فلما تأكد محمد بن القاسم من صدقه عفا عنه، بل فوض إليه مهمة الإشراف على الشؤون الاقتصادية بمدينة الديبل ثم أعلن الرجل إسلامه، فقربه محمد أكثر، وعينه مترجماً لرئيس الوفد الذي أرسله إلى داهر ملك السند لتوجيه الإنذار إليه، وعندما تقدم محمد بن القاسم في السند، بعد فتح الديبل،

وجه الدعوة إلى الأمراء والحكام والوزراء والأعيان وعامة الشعب للدخول في الإسلام، فاستجاب له كثيرون وبصفة خاصة من البوذيين، وقد كان لسلوك المسلمين وقائدهم الشاب، واهتمامه بإقامة المساجد وأداء شعائر الإسلام، أثر كبير في جذب الأهلين إلى الإسلام، فلم يكن محمد القاسم يدخل مدينة إلا ويبني فيها مسجداً، فقد بنى مساجد في الديبل والرور والبيرون والملتان وغيرها من المدن السندية، فرحمة الله على هذا الفاتح الكبير[١].

ومن كلامه:

- من لم يكن في أغلب خصال الخير عليه عقله كان في أغلب الخصال عليه حتفه[٢].

* * *

(١) الدولة الأموية عوامل الإزدهار وتداعيات الإنهيار، ٣ /١٩٦.
(٢) أبو أحمد العسكري، المصون في الأدب، ص٢٢.

obeikandl.com